

## حبيل الله

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ \* وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٣-١٠٤)

الإسلام يريد منك أن تعقد صلة بالشرعية، وبالنبي صاحب الشريعة، ليس بصفتك الشخصية فحسب، بل إن "حبيل الله" أو الإسلام يعني أن تكون تلك الصلة جماعية. فإذا ما بدت صلتكم هذه باقية، ولكن كانت وحدتكم متفتتة.. فمعنى ذلك أنكم قد تحركتم خارج حالة الإسلام. ومن ثم لا يكفي أن تمسكوا بحبل الله وحدكم فرادى، وإنما لا بد من أن تمسكوا به جماعة غير متفرقين.

وإنه لموضوع رائع يلفت أنظارنا إلى ضرورة ألا ندع الأمة تنحلّ وتفكك، وإلا صارت صلتنا بالشرعية ونبي الشريعة غير مجدية. إذا كنتم في الظاهر متصلين بالشرعية ونبيها، ولكنكم تجعلون بأفعالكم ومسلكتكم وأقوالكم الأمة متفككة متحللة.. وتفصلون وتتباعدون بعضكم عن بعضكم، فلا يُعتدّ بصلتكم بحبل الله، ولا تُعتبر صلة بالمعنى الحقيقي، وستستحقون العقاب في نظر الله تبارك وتعالى.

هذا هو المفهوم الإضافي الذي زادته الآية الثانية على معنى الإسلام، وهو مفهوم لا ينشأ في الذهن تلقائياً من الآية الأولى.

وهكذا نشأت الحاجة إلى أخذ البيعة من الخلفاء، ليس لأن الخليفة قد عُيّن كصاحب شريعة.. وإنما لأنه بعد رحيل النبي صاحب الشريعة السماوية.. فإنه لا يكفي مجرد إقامة صلة معه أو مع كتابه.. إذ كيف يتحقق قوله ﴿جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾؟ وكيف يكون التنظيم ممكناً؟ لا بد للتنظيم من السلطة المركزية. ونظام الخلافة بعد النبي يتيح هذه المركزية ويكفل هذا التنظيم. وإذا انقطع الاتصال مع الخلافة عانت الأمة من الانحلال. وكلما انقسمت أمة إلى طوائفٍ مثنى وثلاثٍ وأكثر، ولم يكن لواحدة منها الارتباط بالخلافة، ولم يكونوا يمسكون بحبل الله بحيث يكون الجميع متحدين مجتمعين على يد واحدة.. انقطعت صلتهم بحبل الله في رأي القرآن الحكيم. والحقيقة أنه بدون خلافة لا يمكن لجهاز أي تنظيم في العالم أن يحقق وحدة. إنك تجد طوائف كثيرة، ولكنها لا تكون متحدة كما يكون الناس متحدين في جهاز الخلافة. وبوسعكم أن تروا بعد الخلافة الرائدة في الإسلام.. كيف بدأت الأمة تنقسم وتتجزأ. والوحدة التي كانت في زمن الخلافة الرائدة انحلت.. ولم تزل تتشعب أكثر وأكثر إلى جماعات وشراذم أصغر وأصغر.

فأهم معنى للإسلام، للإسلام الحقيقي، أن تقيموا صلة مع النبي صاحب الشريعة.. مع شخصه، ومع شريعته؛ فهذا العهد ليس قاصراً على طاعة الشريعة التي أوحيت إليه فحسب.. ولكن العهد يجمع بطاعته واتباع شريعته. وبعد وفاة النبي المشرع لن يكون هناك مفهوم للوحدة بدون نظام الخلافة. ولو لا ذلك لقبلنا بأن يمسك كل فرد وحده بحبل الله ويكون ذلك كافياً.. في حين أن القرآن الحكيم يعلن أن ذلك غير كاف،

والمطلوب هو أن ﴿اعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾. وهكذا، بوسعكم أن تروا أنه من جهة المنطق لا سبيل إلا إقامة نظام للخلافة بعد النبوة. وإذا ما انحلت الخلافة مرة لا يمكن أن تقام ثانية إلا بعد النبوة، حتى وإن كانت هذه النبوة تجديداً للنبوة التشريعية. حتى ولو لم ينزل الله شريعة جديدة فإن "حبل الله" يتدلى مرة أخرى من السماء، وعندئذ تقام الوحدة، وبدون ذلك لن يمكن إقامة الوحدة.

ثم تقول الآية الكريمة: ﴿اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾. فما أعظمها من نعمة.. أحدثت معجزة جمعت بين الأعداء وربطت بينهم بصلة وثيقة من المحبة، فجعلت منهم إخوةً أحبّة. ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾، إن الله تعالى هو الذي أخذ بيدكم، وأبعدكم عن حافة هذه الحفرة النارية المهلكة. ﴿كذلك يُبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾.. أي تفكروا في هذه النعمة والآيات البينة كي تتعرفوا على سبيل هدايتكم ونجاتكم.

من هذا الشطر الثاني للآية الكريمة يتضح لكم أن الانشقاق والفرقة تسوق الأمم إلى النار. يحسب الناس عادةً أن النار هي جهنم؛ ولكن المقرر في الأسلوب القرآني أن النار تعني أيضاً الحروب المهلكة. إنها ليست ناراً بعد الموت فقط، بل إنها ما نرى عندما تتحارب الأمم المختلفة في أماكن شتى. والسبب الأساسي لهذه الحروب هو الشقاق، الذي إذا اشتد دفع الأمم إلى القتال ونار الحرب.

وهذا محك آخر يقدمه القرآن لتعرفوا حالكم. يقول لكم: إذا كنتم حقاً مسلمين.. إذا كنتم تطيعون الله وتعتصمون بحبله، قابضين عليه بقوة وإحكام.. فلا يمكن أبداً أن يحارب بعضكم بعضاً، ومن المحال أن يُدفع بكم إلى حفرة النار.. نار الحرب، بعد أن أخذتكم نعمة الله تعالى بعيداً عنها، وحفظكم بحبله بمنحاة من حافّتها. وما دتم واقفين عند الحافة فأية هبة من الريح تقذف بكم فيها، أو أي عدو قاس يدفعكم داخل الحفرة. ولكن الذين أبعادوا عن الحافة لا يمكن أن يُرموا في الحفرة النارية بهبة ريح أو بهزة أو هزتين. من يُمسك "حبل الله" بإحكام وثبات يسير مبتعداً عن حافة النار، ولا يمكن لقوة شيطانية على الأرض لأن تدفعه في النار.

بعد أن فهمنا هذا المعنى تعالوا نلتفت نحو الموقف التعيس الذي يقفه المسلمون اليوم. هذه الحرب التي تقاتل فيها العراق وإيران، ومضى المسلمون يسفكون دماء بعضهم البعض ثماني سنوات طوال، هل يمكن القول، على ضوء الآية القرآنية هذه، أنهم ما كانوا في حفرة من النار؟ وعلى ضوء هذه الآية الكريمة.. هل يستطيع أحد القول بأنهم كانوا معتصمين بحبل الله؟ وأنهم كانوا يمسكون به جميعاً؟ كلا، وألف كلا. فهذه الآية من القرآن الكريم لا تضع أماناً فلسفة فكرية فحسب، بل تجعلنا على دراية بحقائق العالم العميقة. إنها حقائق صلبة، لا يمكن للإنسان أن يمر عليها دون أن يلاحظها. إنها حقائق تسيطر على الأمم، ولو تجاهلوا ما استطاعوا اجتناب عواقبها.

وإذن، فقول الله تعالى: ﴿اتقوا الله حق تقاته ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون﴾ جعل أمراً ملزماً وفرضاً واجباً على كل المسلمين، وان يتوحدوا معاً كنفس واحدة، طاعةً لله تعالى، ويتمسكوا بحبل الله، ولا ينفكوا متشبثين

به، فلا تفلت يدهم منه أبداً.. ولا للحظة واحدة، كما لا ينفصل بعضهم عن بعض؛ أي أهم من ناحية يسكون جبل الله، ومن ناحية أخرى تتماسك أيديهم ويتحدون على جبل الله معاً.

هذا هو مشهد وحدة الأمة الإسلامية الذي صورته لنا الآية القرآنية الكريم بالتفصيل. والمؤسف أن المسلمين الذين يتلون القرآن المجيد لا يتفكرون في مواضعه ولا يتدبرونها؛ وكثير منهم لا يستطيع قراءتها ولا التدبر في معانيها، ولكن زعماءهم وقادتهم بعد قراءتها يعمدون إلى التفريق بينهم بدلا من التوحيد. إنه لظلم عظيم حقاً.. لأن القرآن المجيد يدعوهم قائلاً: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾ لتتقوا من شتى أنواع عذاب النار، ويقول: حتى ولو كنتم مستعدين لمهاجمة بعضكم البعض؛ فإن بركة حبل الله سوف تزيل منكم حالة العداوة، وسوف يقرب ما بينكم بمشاعر المحبة، ويربط بينكم برباط القربى حتى تصبحوا إخواناً.

ما أجمل وأروع هذا المشهد الذي تصوره لنا الآية نتيجة للتقوى. وعلى النقيض نرى شيوخ اليوم يُرغون ويُزبدون، ويعلمون المسلمين بذكر آيات القرآن الكراهية تجاه إخوانهم. لقد رأت الدنيا مشهداً كهذا أولاً لمدة ثماني سنوات، عندما استخرج شيوخ إيران من القرآن ما يحضون به الناس على قتل العراقيين. لقد رموهم بالكفر وقالوا للناس: يجب مهاجمتهم وقتلهم لتكونوا أبطال الإسلام أو شهداء الإسلام. وبنفس القوة والقناعة كان شيوخ العراق يبشرون الناس بالجنة ومنزل الشهداء إن هم قتلوا الإيرانيين الكفرة الملعونين، وزجوا بهم في نار الجحيم. ولم تكن خطب المشايخ تقال سرّاً.. بل كانت تذاع على الملأ في كل وسائل الإعلام من الجانبين. كانت جرائدهم ومجلاتهم وصحفهم تخرج على الدنيا كل يوم تملأ صفحاتها بهذا الكلام. وكانت إذاعاتهم المسموعة والمرئية مشغولة طول الوقت في ترديد هذا الكلام. واستمرت هذه الدعايات لثماني سنوات. فهل تحسبون ذلك "حبل الله" كما يعلمنا القرآن الكريم؟

ثم هو نفسه العراق الذي كانت تسانده بلاد العرب كلهم.. وكانوا يعلنون أن هذه الحرب هي بين الإسلام واللاإسلام. واتخذت أقوالهم عدة ألوان.. فتارة هي حرب بين الإسلام السنّي والإسلام الشيعي، وتارة أخرى حرب بين الأشرار النهائين الذين مرقوا من الإسلام وبين المؤمنين الأبرار. وحيناً قالوا إنها حرب بين العرب والعجم. وكل العرب الذين ساندوا العراق لم يفعلوا ذلك حقاً باسم الإسلام.. لأنهم، في جهات أخرى، كانوا على علاقات عادية مع الشيعة، بل إن بلاداً ذات أغلبية شيعية ساندت العراق.. لأنهم عرب. فالحرب إذن كانت بين العرب والعجم، ولكنهم استخدموا اسم الإسلام لمؤازرة العراق، فقالوا: إن البلد الذي خرج عن الإسلام وهاجم المسلمين والعرب بلد معتد يرتكب جريمة مضاعفة.

واليوم ترون عالم الإسلام، الذي يسمّى الإسلام السنّي، قد انقسم إلى حزبين، واتحد كثير من بلاد العرب ضد دولة إسلامية كبرى.. العراق؛ ونار الحرب موشكة على الاشتعال، تلك النار التي قال القرآن الكريم: لقد كنتم ذات يوم تقفون على حافتها، وأنجاكم الله منها!

وإلى هذا الأوان.. لم يقفوا بعد في حفرة النار هذه. ولو أنهم يؤمنون حقاً بالقرآن.. ويدرسون هذه الآية، فإني بناء عليها أدعوهم بكل تواضع، وبكل حرارة، وأناشدهم الله جل وعلا.. أن يتدارسوا هذه الآية في كل

مسجد في بلادهم، وفي إذاعاتهم وصحفهم وكل وسائل إعلامهم، ويخبروا الناس بما ينتظره القرآن منهم، ويبينوا لهم أنهم إذا ما خرجوا للحرب.. فلن يموت أحد على حالة الإسلام.

إن القرآن الكريم حق.. وإن دعايتكم هي الباطلة. من المحال أن يخطئ القرآن وتكون ادعاءاتكم حقاً. إن الموت في هذه الحرب موت فرقة وشتات، والقرآن يقول ﴿وَلَا تَفْرُقُوا﴾ محدثين النزاعات والخلافات. يجب عليكم أن تتمسكوا بحبل الله جميعاً، وهذا هو الأمل الوحيد الذي ينقذكم من خراب الحروب وويلاتها.

وعلى كل مسلم أمهدي في كل مكان من العالم.. أن يوجه انتباه إخوته المسلمين إلى هذه الحقيقة: بأن العلاج المنجي من الهلاك المذكور في هاتين الآيتين الكريميتين اللتين تلوتهما أنفاً. فتدبروهما وخافوا الله تعالى. يجب على المسلم أن يكف يده عن قتل مسلم آخر، لأن من مات لن يموت على الإسلام، ولا القاتل سيكون بطلاً في عين الله، بل سيكون قاتلاً لمسلم. وإذا كان هذا التقاتل سيجرّ معهم أمماً أخرى، حيث يدعون غير المسلمين أن تعالوا وساعدونا على قتل إخواننا.. صار الأمر أشد فظاعة وكراهة.

هذا هو وقت الدعاء ولا شك، وبدون الدعاء لا يمكن فتح الأقفال التي على القلوب. لا يكفي الوعظ والنصح لفتح القلوب ما دام المرء لم يحصل على العون الإلهي. فابتهلوا إلى الله جل وعلا، وابدلوا جهودكم، وذكروا إخوانكم المسلمين مراراً وتكراراً بهاتين الآيتين. أخبروهم أن حياتهم متوقفة على اتباعهما، وهلاكهم في مخالفتها. وإنه لموت أليم.. لأن الآية القرآنية تشهد بأن من مات فيها لن يكون مؤدياً حق التقوى. تقول الآية له: إنك مت ولست في حال إسلام. سميت نفسك مسلماً.. وحاولت طوال حياتك أن تتبع الإسلام.. ثم الآن تبذل حياتك من حيث الظاهر في سبيل الإسلام.. ولكن نهايتك تعيسة، إذ تنهض كلمة الله لتشهد ضدك. يا من تتحدثون عن الإيمان.. وتكلمون عن التقوى، يا من تتشددون بالإسلام، إن كلمة الله التي أوحاها لكم شاهدة على أنكم لم تذوقوا الإيمان، ولم تعرفوا معنى التقوى، ولا حق لكم في الحديث عن الإسلام.

إنه لوقت شديد الخطورة ذلك الذي نراه أمام عيوننا. هناك في العالم كله جماعة واحدة تستمسك بحبل الخلافة الإلهي. إنها تشبث بحبل الله. إنهم عقدوا عهداً بالوفاء مع الرسول سيدنا محمد المصطفى ﷺ وشريعته.. جميعاً مترابطين يداً واحدة، ووفوا بواجبهم بحسب مفهوم هذه الآية، ووصلوا أنفسهم جميعاً بحبل الله.

عليكم أن تواظبوا على اعتصامكم بحبل الله. ليس ذلك فحسب، بل ادعوا الناس إلى النجاة، ونادوهم أن هلموا إلى هذا الحبل. فهو الضمان الوحيد للحياة.

عسى الله تبارك وتعالى أن يوفقنا لذلك وأن يمكن أولئك الذين يستمعون لي أن يفهموا الموضوع ويعملوا به، وأن يشربوا ماء الحياة من هنا، لأنه لم يبق هناك سبيل للحياة سوى ذلك. اللهم آمين!

(مقتبس من خطبة ٢٣/١١/١٩٩٠)